الجـــوّال الـــذي يـــصفـــر آخـــر الـليـل

سعد محمد رحيم

بهدوء ودأب يشتغل إبراهيم البهرزي في منطقة شعرية خاصة به، ولأنه لم يأبه للموضات المزوقة، أو للجعجعة التي كانت، في الغالب، بلا طحن، والمحسوبة بلا وجه حق، على الحداثة فإنه يظفر بقصيدة لها رصانتها الإبداعية، ورنينها الوجودي المؤثر. فإبراهيم تعامل مع مفردات الحياة، ومن ثم مع اللغة بكيفية اختلفت عن طرق تعامل مجايليه معهما، فدخل مناخ الحداثة، من غير ادعاءات، لذلك نرى أن جملة إبراهيم الشعرية تنبثق بقوة وصدق، وتتجنب التلفيق لتتشكل على خلفية رؤية تدهش بقدر ما تصدم. وميزة إبراهيم، ها هنا، أنه يعي تماماً ماذا يفعل، ويدرك أبعاد تجربته، فينشئ من ثم قصيدته بثقة وجموح. فإبراهيم يغامر على صعيد اللغة حين يربك ما ألفناه سماعياً وقرائياً.

(ها تكون حكيماً/ ها تكون غاضباً/ تضع المندل العتيق على خطوة العتبة/ ساعة يصعد القضاة/ إلى جريمتك الجميلة) ص,٢٣

أو:(أعدد في الليل قافلة من نكات/ وأبكي على أرقي/ يا ذئاباً تهندس لي طرقي/ هل كثير على العابر المنحني/ برهة الالتفات؟) ص,٩٢

وهو يغامر على مستوى الوجود حين يمد بين قطبيه، وأقصد بهما الحرية والموت، جسراً ناحلاً، ولكن صلباً.

(أريد أن اطير/ يا مهاجرين ومقيمين يا مقاتلين وقاعدين/ الأرض مثقلة بجثث الطيور/ والسماء خفيفة/ لا تصلها أجسادنا/ لذا فإنني حين أفكر بالطيران/ تقاطعني الوحشة/ من مكانها الرصين) ص,٣٠

يعد إبراهيم البهرزي واحداً من أهم شعراء الجيل السبعيني، والأقل شهرة بينهم، والأكثر إهمالاً من قبل النقاد. وإذا كان هو من يتحمل جزءاً من مسؤولية هذا الإهمال لعدم إتقانه فن الترويج لأسمه، فإن الجزء الأعظم من المسؤولية يتحمله النقاد والوسط الأدبي. وقد تأخر صدور مجموعة شعرية له حتى العام ٢٠٠٣ على الرغم من غزارة إنتاجه، حيث بادر الشاعر المغترب وديع العبيدي، رئيس تحرير مجلة "ضفاف" إلى طبع ونشر مجموعة البهرزي "صفير الجوال آخر الليل"❖ ضمن إصدارات "ضفاف/ النمسا" ومن طريق المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، ويبدو أن المجموعة رأت النور في مرحلة عصيبة من تاريخنا الحديث، حيث سقط النظام السابق وجرى احتلال العراق وما شهدت الأشهر والسنوات اللاحقة من دوامة عنف وخراب لم تترك مجالاً للفت الأنظار إلى مجموعة شعرية مميزة، صدرت في وقت غير ملائم تماماً، لذا لم تأخذ حظها من الاهتمام النقدي، والقراءة المتأنية والانتشار. ناهيك عن أنها لم توزع بشكل جيد للأسباب المعروفة.

في واحدة من أجمل قصائد مجموعته وهي "الطيوري" يختار إبراهيم محوراً لقصيدته شخصية ذات مكانة اجتماعية ملتبسة، ذلك الكائن الذي يحدد صلته بالآخرين من أبناء جلدته ليكون وحيداً مع طيوره، فنجد "الطيوري" هذا موضوعاً في أفقين يتقاطعان كثيراً، ويتطابقان، ألا وهما أفقا السرد والبناء الشعري، فخلق شخصية لا بد من أن يفضي، أو يوفر إمكانية تأسيس العنصر السردي حتى وإن كان النص الذي هو قيد الكتابة قصيدة شعرية، والبهرزي، حاذق في استثمار الطاقة السردية في نسيج قصائده.

"طيوري" البهرزي كائن، مدى حلمه السماء اللانهائية الفسيحة، المبذولة لمن باستطاعته التحليق، لكن حلمه هذا محبط نتيجة أسباب قاهرة، والطيوري وحيد إلاّ مع طيوره، فهو هارب، أو مطرود من عالم البشر ولغطه، لذا يحاول ابتكار، أو إيجاد لغة بديلة، تكون ملائمة للتواصل مع كائناته المحلقة، وهو معها لا يفصح عن هيام بالطبيعة، بقدر ما يبغي أنسنة جزء منها. وطيوري البهرزي يمضي الوقت بنظرة فارغة، فما يهمه ليست الطيور في حقيقة الأمر وإنما نفسه المأزومة وقد وجدت في الطيور معادلاً موهوماً لحرية مفتقدة. إن الطيور العابرة في السماء تكافئ عبور الزمان في الحياة، ودنو الموت، والموت ها هنا شاخص ومتربص.

(الوقت يفوت يا طيور/ وتفوتين فوق نظرتي الفارغة/ تشييعاً فخماً يعبر الموسيقى إلى المقبرة) ص,٢١

غير أن الموت ذاته يوازي غياب الحرية، أو التهديد بغيابها.

(وغداً/ ستلهث السماء تحت مناقير الطيور/ مجروحة / تنزف ندم الحرية) ص,٢٢

ورؤية الطيوري للزمان رؤية مأساوية منذ البدء، فهل تنطبق مقولة بيتس على طيوري البهرزي والتي مؤداها أن حياة المرء لا تبدأ بحق إلاّ بعد أن يدرك أن الحياة مأساة؟. أو مع تعليق أرشيبالد ماكليش على قصيدة لكيتس قائلاً أن المرء لا يفهم أن الحياة مأساة. إن المرء لا يكتسب الإحساس المأساوي. إلاّ عندما يجرؤ على أن يتذوق ويحب ذاك الذي سيأخذه الموت؟.

يكون الطيوري قد ضاق ذرعاً بمجتمعه، فهرب إلى حيث الطيور يجد فيها قريناً روحياً وحلماً مستحيلاً، فالممكن الإنساني محدود، والحرية وهم في نهاية المطاف لأن ما يقدر عليه الإنسان أخيراً لا يعادل أبداً ما يحلم به..

(الحرية تلدغ أوكارهاالقاسية بود/ كأن الحب يقبض بعضلاته/ على فكرة الغزل/ الحرية تكتب شعراً لا تدركه الطيور) ص٢٨ ,.٢٩

فقصيدة البهرزي تتحرش بالحافات الحادة لمقولات الوجود الأساسية "الحياة والحرية والموت" وما تتصل بها من أسئلة، وما تترشح عنها من إشكاليات. و"الطيوري" شديد الإحساس بالحرية، وبرغبته فيها، وأن يرافق الطيور بطيرانها، غير أنه بالمقابل يعي مواطن قصوره، لا الفسيولوجي فحسب، وإنما النفسي والاجتماعي والوجودي قبل كل شيء.

(من يمنعني عن الطيران/ غير يدي التي تمسك الأشياء الثقيلة/ وقدمي التي تدوس على فضائل الموتى) ص,٤٦

وبقدر ما تمضي الطيور في مدارج السماء بخفة يجد الطيوري نفسه ثقيلاً بأشياء العالم التي صنعها بيديه، أو صنعتها أيدي الآخرين أشباهه وأخوته في الإنسانية، وبفعل هذا الثقل يغوص إلى أعماق الأرض. وإذ يعني التحليق في السماء حرية يعني الغوص في باطن الأرض موتاً، وفي المسافة بين القدرين تتجلى مأساة الوجود.

(الطيور قراءتي في نعش السماء/ لمستي وهي تبور/ على بضاعة السراق الغالية/ لآخرين/ وضعوا في جيوبي الأحجار الكريمة/ كنت ثقيلا جدا..) ص,٢٧

فالطيوري يدرك عمق محنته، فهو لم يطر ولا يطير، ولن يطير، فاليد التي تمسك بالأشياء الثقيلة لن تتحول إلى جناح، إنها قادرة فقط على أن تلوح تعبيراً عن فرح موهوم، أو خيبة مريرة، ولذلك لا ضير في أن تباع هذه اليد.

(أي ضير بأن أبيع ذراعيَّ/ للوزان والعطار والعتّال والنجار والحداد/ والقاضي والخياط والطباع والصياد/ طالما لا أطير) ص,٣٨

يبدو إبراهيم وكأنه يؤرخ للألم العراقي، كأنه يحاول ترميم تلك الثقوب كلها في الذاكرة، كما لو أن التذكر وسيلة أخيرة كي لا يفلت الظلّمة والقتلة والطغاة من حساب التاريخ. فإبراهيم لا يهمه الحدث المباشر، لا يهمه سطح الحكاية، إنما، وهو الشاعر، عليه أن يرصد حجم الخراب في الروح وفي ما وراء الأشياء، مدى الجرح في العمق، كي يحيل أوسع مساحة ممكنة من التجربة. أقصد العراقية، مثلما خبرها هو في العقود الأخيرة. وظلالها، إلى الوعي وإلى الشعر في الوقت نفسه.

إنه يتساءل، وهذا مفتاح أول دائماً، لإضاءة وتلمس الغائر والمسكوت عنه والمنسي.. لفتح الباب الممنوع والكشف عن السر الموجع.. في هامش إلى أبيه يقول:

(أخلفتنا لنحرس البيادر
أم لنحصي الغربان؟) ص,٤٢

وماذا تفعل الغربان غير أن تبيد وتترك الأرض قفراً؟

في مكان آخر، أعني في قصيدة أخرى ينتهي إبراهيم إلى مرثية طويلة، كأنه من خلالها يمنحنا صورة، كولاجاً، عن المعضلة، ليوخز ذاكرتنا بها.

(أرثيك يا أرض المعابد المطمورة تحت الثكنات/ أرثي أعياد حصاد ومواسم نذر وعراجين الأقمار المعبودة/ أرثي رحم الكلمة ومشيمتها والفخاري المتماهر واللوح/ الحكيم/ أرثي كالنادبات في أور القديمة موت المواكب الجميلة/ في زمان الفرادى العائدين إلى المنازل/ ثعالب جائعة حيرى/ أرثي إبراهيم السومري التائه في ذاكرة الأهوار/ أرثي القبولات والعزائم وأرارات وسلمان باك والخضر وشجرة آدم والعزير وكوديا والقبيس وزكريا وابن عبدكة وإبراهيم عرب والملا عبود الكرخي وسليمة باشا وكوك نزر والباجة والتشريب والزحلاوي والفينة والعرقجين وبارات الشط ومقاصف أبي نواس وبلبل الإذاعة والشيخ عمر والكاظم وكنيسة اللاتين والخاتون ومناحيم دانيال والدولة و... و... و... و...).

تبدو مجموعة البهرزي هذه في عديد قصائدها المتناثرة مرثية واحدة طويلة، للجمال والحرية، للأحياء والأموات، للحلم والذاكرة، للحب والأصدقاء، للمدن والطرقات.. قصائد تقطر أسى وحنيناً، وتحاول أن تقول غير أنها تجهش بالذي تقول.. في مرثية فائق حسن نقرأ:

(تفر الخيول من النوافذ/ من مرسم بالباب المعظم/ الخيول الكميتة التي تمشط الفرشاة/ ذيولها المشرشبة/ تفر لأن الصهيل عاد وقفاً/ على الأسطبل المسيج باللافتات السود/ وأصوات النادبين حقولاً شاحبة/ كمراعي فان كوخ المتموجة تحت سفع/ السنابل...) ص,١٠٧

وفي القصيدة الأخيرة في المجموعة وعنوانها "بهرز اليتيمة" والمهداة إلى صديقه المهاجر خالد مجيد، يحشد البهرزي بين مقاطعها لوعته وحزنه وألمه وحنينه.. يقذف بصرخته المخنوقة:

(وأنا عائد في العشيات وحدي/ بذات الطريق الذي كنت لي فيه/ عكازة وأغان أليفة/ عائد في العشيات وحدي/ تذكرت وجهك في الليل/ عند انحدار الطريق مع العوسج المترامي/ تذكرت سخرية نتداولها/ عن ممر الحياة اللعوب/ تذكرت جرحك/ أو شبه موتك/ في أسل القصب المتآمر/ ثم تذكرت جلجلة من ضفاف ديالى الندية/ صوب أعالي المدينة../ مستعطفين نعاج الخلائق/ دائبة تتجسس/ ثم تذكرت أني وحيد تماماً/ لأنك في العيد لا تتذكر أسمي) ص,١٢٤

هذه القراءة الأولية السريعة لن تفي مجموعة " صفير الجوال آخر الليل" حقها قطعاً، فهي بحاجة إلى قراءات نقدية عديدة تكشف الجوانب الغنية لقصائد المجموعة في تراكيبها اللغوية، ومحمولاتها الدلالية، والأبعاد الوجودية التي تنطوي عليها.

❖"صفير الجوال آخر الليل" إبراهيم البهرزي.. منشورات ضفاف/ النمسا.. طبعت في المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت.. ط١/ ,٢٠٠٣

الشاعر والفيلسوف أحمد خاني

رائد الأدب الكوردي و أحد مؤسسي القومية الكوردية

المدى الثقافي

((أنا عطار ولست جوهرياً، قد غرست نفسي ولم يعن أحد بتجربتي، أنا كوردي جبلي، من هذه السفوح، وهذه الكلمات جئت بها من الصميم الكوردي، فوقعوها بحسن ألطافكم، أصغوا إليها بسمع إصغائكم)): بهذه الكلمات يقدم (أحمد خاني) نفسه لقرائه في ملحمته الخالدة (مم و زين).

أحمد خاني

(أحمد خاني) أديب و مفكر وهو أشهر شاعر كوردي على الإطلاق وأعلاهم شأناً وسيرة وذكراً بين مختلف الشعراء الكورد، وأكثر من كتب عنه حتى الآن، وقد حظي بكل تلك الحظوة والمكانة كونه مؤسس الشعر القومي الكبير وصاحب المدرسة القومية الكبيرة في ميدان الشعر الكوردي. ويضفى على أهمية هذا الشاعر شيء أساسي كون الكورد لم يحظوا حتى الآن بكيانهم المستقل، لذلك كلما راجعوا أنفسهم من النواحي الفكرية والسياسية والأدبية، رأوا(خاني) ماثلاً امامهم، فمنذ أكثر من ثلاثة قرون قال وكتب مايفكر به الكورد في هذا اليوم، وما يعانون منه من مشاكل داخلية وخارجية.

ولد أحمد خاني ابن الشيخ الياس في العام ١٦٥٠م، في قرية (خان) بالقرب من مدينة (بيازيد)، في كوردستان الشمالية، في منطقة (هكاري) التي كانت منبعاً لبروز عدد كبير من العلماء والشعراء والأدباء الكورد الكبار الذين يحتلون مساحة واسعة في ساحة الثقافة الكوردية واللغة والأدب والتاريخ الكوردي أمثال (علي الترماخي)، و(فقيه طيران)، و(علي الحريري)، و(برتو الهكاري)، وغيرهم الكثير، وأعلاهم شأناً ومنزلة هو (خاني)، الذي يقول عنه العلامة الأوربيلي: ((عندما نقول أن الشاعر والكاتب قريب من شعبه ومرتبط بالشعب والجماهير، فإن علينا أن نذكر تلقائياً ثلاثة شعراء وهم فردوسي الإيراني، و روستا فيللي الجورجي، و أحمد خاني الكوردي..)).

تلقى خاني علومه الإبتدائية في الكتاتيب والجوامع، ليدرس كتب الشريعة واللغة والبيان والبديع والمنطق والبلاغة، ثم تعلم في المدارس التي انتشرت في المدن الكبيرة، مثل (بيازيد) و(تبريز) و (بدليس). وقد ظهرت عليه علائم النبوغ وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. درس (خاني) في مدرسة المرادية ببايزيد ثم ذهب الى اورفة، و أخلاط، وبدليس، ومنطقة بوتان، ثم منطقة بادينان وحتى إستانبول، وقد وصل في رحلته العلمية الى بلاد الشام ومصر، متفوقاً في مختلف علوم عصره، وهاضماً الثقافات المختلفة من يونانية وإغريقية وفارسية قديمة وعربية متميزة، إذ جمع بين الأدب، لاسيما الشعر، والفقه الإسلامي والتصوف، فذاعت شهرته مقرونة بالمعرفة العميقة في الأمور الأدبية والفلسفية والدينية.

ثم عاد (خاني) بعد تلك الرحلة العلمية الطويلة الى (بايزيد) ليعيش فيها، ويقوم بالتدريس في أحد مساجدها وينصرف للبحث والتأليف وكتابة الشعر، ويبقى في (بايزيد) لغاية وفاته في العام ١٧٠٧ م، ليظل من أعظم مفكري وشعراء شعبه الكوردي والذي لا يزال فكره ماثلاً للعيان حتى اليوم، ولا يزال الجدل محتدماً حول فكره وشعره وشخصيته.

أتقن أحمد خاني العربية والفارسية والتركية فضلاً عن لغته الكوردية التي كان يعتز بها ويدعو الشبان الكورد إلى تعلمها والكتابة بها. ومن أجل ذلك راح يفتح المدارس ويتطوع للتعليم فيها بنفسه دون مقابل، ومن أجل أن يحبب العلم للطلاب، أعد لهم كتابا ليسهل عليهم التعلم سماه (نو بهارا بجوكان) أي الربيع الجديد للصغار، مجسداً بذلك حبه لشعبه ولغته القومية. وعلى الرغم من تمكنه وإتقانه هذه اللغات فقد آثر أن يكتب بلغة قومه ليؤكد بذلك مساهمة الكورد في بناء الحضارة الإنسانية وإبرازا لشعبه ولطاقاته الفكرية، أو كما يقول هو((...ولكي لا يقول أحد أن الكورد عديمو المعرفة لا أصل لهم ولا أساس/ فجميع الملل لها كتبها والكورد وحدهم لا حساب لهم في هذا الميدان)).

عاش أحمد خاني في النصف الثاني من القرن السابع عشر الذي كان حافلا بالصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية للسيطرة على كوردستان وثرواتها، والذي شهد أيضا إنهيار الإمارات الكوردية الواحدة تلو الأخرى وآخرها إمارة (تبليس)، وإنصراف الأمراء والحكام الكورد إلى الإقتتال الداخلي، فكتب ملحمته الخالدة (مم وزين) يدعو فيها الأمراء الكورد إلى الاتحاد والتعاون بدلا من الإقتتال والفرقة ويوضح لهم مرامي الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية، إذ أن كل همهما هو إحتلال كوردستان، والتمتع بمواردها وبموقعها الإستراتيجي المهم والإستفادة من الشعب الكوردي كرأس حربة ضد الإمبراطورية الأخرى. ولم يكتف (خاني) بدعوة الأمراء فقط للوحدة بل دعا الشعب أيضا لليقظة والتنبه والاعتماد على الذات، إذ كان يثق بطاقات شعبه الخلاقة فلم يترك فرصة إلا وكان يدعو الكورد للتعلم والإتحاد والعمل، حيث كان يربط بين الإزدهار السياسي والإزدهار الإقتصادي والعلمي. وفضلاً عن فكره القومي الثاقب كان خاني متحرراً، وقف إلى جانب المرأة وأنصفها في شعره ودعاها إلى التعلم والتحرر كما كان معاديا للظلم ويكره اللهاث وراء جمع المال ورعاته.

ومن أهم مؤلفاته التي ترجمت الى العديد من اللغات العالمية :

❖ قاموس نوبهار: وهو قاموس عربي كوردي، الفه الشاعر خاني شعراً في العام ١٦٨٣م، من أجل تمكين الطلاب الكورد من فهم وتعلم اللغة العربية لغة القرآن، كما يقول هو، وهي لغة المدارس الدينية حينذاك وحتى الآن. وقد طبع هذا القاموس عدة طبعات في تركيا وفي العراق.

❖ ملحمة مم و زين: هي ملحمته الرائعة الذائعة الصيت، وهي تشذيب فني رائع للقصة الفولكلورية (مه مي ئالان)، التي تفنن الشاعر (خاني) في صياغتها شعراً وأفرغ فيها كل ما يحمله من عقل وفكر وفلسفة وتصوف وفن وشعور قومي جياش، بحيث غدت الملحمة عنواناً زاهياً لعلو شأن الأدب الكوردي القومي.

❖ عقيدة الإيمان: وهي عبارة عن (٧٢) رباعية شعرية، تعنى بالعقيدة والدين الإسلامي.

❖ مجموعة متفرقة من القصائد الشعرية: كانت منشورة هنا وهناك من قبل الأدباء الى أن جمعها مؤخراً(إسماعيل بادي) في كتاب مستقل في العام ,١٩٩٦

وقد نُشر العديد من الكتب حول فكره وفلسفته وتصوفه وشعوره القومي منها:

❖ د.عزالدين مصطفى رسول، (أحمدي خاني شاعراً ومفكراً وفيلسوفاً ومتصوفاً)، بغداد ,١٩٧٩

❖ رشيد فندي، (منافشات حول خاني)، بغداد ,١٩٨٦

❖ رشيد فندي، (خاني وحاجي)، دهوك ,١٩٩٦

❖ فرهاد شاكلي، ا(لشعور القومي لدى خاني) باللغة الإنكليزية.

❖ علي فتاح دزه يي، (مم و زين)، أربيل ,١٩٩٧

وفي مقطع من ملحمته الخالدة (مم و زين) يقول الشاعر:

بقيت أفكر في حكمة الله
وفي الكورد في دولة الدنيا
يا ترى لماذا بقوا محرومين
ولماذا بقوا بالجملة محكومين!

من المكتبة العربية

النسب والقرابة في (المجتمع) العربي قبل الإسلام

تأليف: د. محمد سعيد

الناشر: المركز الثقافي العربي - بيروت ٢٠٠٦

مؤلف هذا الكتاب هو د. محمد سعيد الكاتب التونسي المتخصص بقضايا النسب والقرابة وما يتصل بقضايا الإثنولوجيا، وله العديد من الأبحاث والدراسات في هذا المجال. وفي كتابه (النسب والقرابة في المجتمع العربي قبل الإسلام) يوجه المؤلف اهتمامه إلى أدب الأنساب أو مصنفات الأنساب العربية،

عندما تتكلم الذات

السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

تأليف: د. محمد الباردي

الناشر: اتحاد الكتاب العرب - دمشق

مؤلف هذا الكتاب محمد الباردي روائي وناقد تونسي ولد في قابس في العام ١٩٤٧م. له عدد من الروايات منها: (الملاح والسفينة) و(مدينة الشموس الدافئة) و(على نار دافئة) و (جارتي تسحب ستارتها) و (الكرنفال).

كما صدر له في النقد: (حنا مينه روائي الكفاح والفرح) و(الرواية العربية والحداثة) و(في نظرية الرواية). يبحث كتابه الجديد في مفهوم السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وإشكالية هذا الجنس الأدبي وشروطه ودوافعه وأشكاله محاولاً الوصول إلى تعريف جديد له.

يشير الباحث في المقدمة إلى أن كتاب (الأيام) لطه حسين وضع حجر الزاوية لأدب السيرة الذاتية، وكان أثره في الأدب العربي الحديث أشبه بأثر اعترافات روسو في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر.

الأولياء في المغرب الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية

تأليف: محمد جنبوبي

الناشر: منشورات كنال أوجوردوي الرباط ٢٠٠٦

في المغرب لا يشكل مرأى ضريح أو مزار شيئاً غير عاد أو مثير للانتباه، فحيثما ولى المرء وجهه إلا ويصادف قبة أو (كركورا) أو (حوش مزارة) في القرى أو المدن أو الخلاء أو في قمة الجبل أو في سفحه، لدرجة جعلت الباحث بول باسكون يطلق على المغرب شعار (بلد المئة ألف ولي)، وهو شعار لا مغالاة فيه، كما يرى الكاتب والصحافي محمد جنبوبي صاحب كتاب (الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية)، الذي صدر حديثا ضمن منشورات (كنال أوجوردوي).